الجناب العالى وكريمتيها البرنسسات المصونات وأعضاء الأسرة المحمديَّة العلويَّة الكريمة ووزرائنا الفخام وأمرائنا الكرام وحضرات ذوى العلم والفضل والوجاهة والنبل من السادات والسيدات

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف عليها ألف آمينًا

الفتاة

برزت الفتاة من خدرها لا يأُخذها الحياءُ من قرائها لأنها بين ذويها الكرام لا تتلو عليهم إلاَّ حديث الفضل، ولا تأُخذ عنهم إلاَّ الكمال والنبل شادَّة بهم أُزرها فى البدء والختام

وإنها ترى سعيها فى جانب الخدمة العامة (للجنس والوطن) واجبًا وأوجب منهُ عليها البحث فى شأن الفتاة الَّتى تسمت باسمها وتشرفت بالنسبة إليها ولا تريد بذلك إلاَّ نقل أفكار أهل العلم وذوى العقول الذين خاضوا عباب الأبحاث فأفادوا واستفادوا

وقصدها الوحيد كشف الستار عن كثير من الأفكار والآراء الَّتى إذا حالت فى الخاطر لا يبوح بها القلم الشرقى مخافة أن تثور ثائرة النساء على الكاتب وإنما هو حديث فتاةٌ عن فتيات من جنسها تنقلهُ تبصرة وذكرى

فأَول الأمور خطوراً فى البال عمل النساء ولا أريد بهِ العمل المطلوب من المتزوّجات لأنهنَّ قد تكثر عليهنَّ المهام بكثرة العائلة أو تلهيهنَّ الشواغل عن القيام بواجباتهنَّ، وإنما شأنى فى البحث عن الفتاة الَّتى لا تزال بكرًا عذراء فهى الَّتى بحث علماءُ الاقتصاد السياسى فى شأُنها فقالوا أن مثيلاتها فى الوجود كثار، ولذلك كان من الواجب على ذوى الأقلام أن تبحث فى واجباتها بحث الخبير الذى لا يأُخذهُ فى الحق لومة لائم

وهذا البحث عَلَى ما قررهُ العلماء يقسم إلى قسمين: زمن الصبا وزمن الشيخوخة. فالأول يكون بهِ الجمال زاهيًا والشبيبة في أيَّانها والعافية ملء البدن. والثاني وهو زمن اليأس أيام تزول بهِ زهرة الحسن وتفنى منهُ دولة الجمال وينقطع فيهِ أمل الزواج وتجئ من بعدهِ السنون بحيث تكثر بها الآلام والأتعاب

فإذا نظر الباحث إلى مساوئ القسمين ومتاعب الحياة فيهما وما يجر الحال من الوبال المتعلق في ذيلهما يرى أن كل ذلك ناتج عن قلة العمل

ولست أريد في هذا البحث أولئك الفتيات اللواتي حكم الدهر عليهنَّ بالزوج تحت ثقل المرض أو بعض العاهات ولا بالأوانس اللواتي شغلهنَّ الغنى والمجد والشرف ورغد العيش عن كل شاغل من العمل بل إني أريد أولئك الفتيات اللواتي لم يخلق لهنَّ من الغنى نصيب موروث وإنما هنَّ بالمركز الذي اقتدر أن يكون بهِ والدهنَّ.

وكأني بلفيف البنات اللواتي ينظرن إلى إخوانهنَّ الذكور بأعين من التعظم والتكريم بما يرين بهم من الأهميَّة حيث ترنُّ في آذانهم منذ نعومة أظفارهم ما عليهم من الواجبات من الأعمال الَّتي يشتغل بها أهل الاجتماع الإنساني، فيصبحون بما رّنت بهِ آذانهم منذ خروجهم من المدارس أو منذ تشتد سواعدهم أن يكونوا من الأعضاء العاملة في الكون، فيسعى زيد ليكون تاجرًا وخالد ليكون خادمًا وبكر ليكون جنديًا وعمرو ليكون عالمًا أو مزارعًا، وكل منهم يتجه بكليتهِ إلى مهنته فينال من عملهِ فيها غاية وجودهِ على الأرض وبعد ذلك تجدهُ عاملاً مجدًا كادحًا صارفًا بياض نهارهِ في معارك الأيام حتى إذا اسود الدجى برقت أسرته سروراً من قضاء واجبهِ فيأوي إلى بيتهِ وهو مرتاح بتعبهِ.

وإذا لم يكن بهِ همة العاملين أو كان ينقصهُ غير مزيَّةٍ من مزاياهم أو عبثت بهِ الظروف ورمت بنتاج عملهِ من حالق حبطت مساعيهِ، ولم يجد لهُ بعد ذلك عملاً تراهُ قد

عاد يتمرَّغ فى حمأة الكسل متأفقًا من الحياة متضجرًا من نكد الزمان وهو مقطب الوجة خائر القوى ضعيف العزم والرأى ناسيا كل ذلك الدهر منتقمًا بشفشقة اللسان من الذين أسعدهم الزمان ولا عذر لهُ فى هفوة اللسان أو كبوة القلم إلاَّ لكونهِ ضاربًا فى بيداء البطالة.

فإذا كان هذا نصيب بعض الرجال المتقاعدين عن مهام الأعمال أو الذين تأتيهم العطلة عن العمل فترة من الزمان فكيف يا ترى يكون حظ النساء من مثل هاتيك الأفكار والأخلاق ومعظمهن يصرفن السنين الطوال من غير عمل فهل يلمنَ إذا أوسعنا مجال القيل والقال، ولم يكن لأكثرهن حديثًا خارجًا عن دايرة البيت والمطبخ والتأنق والبهرجة والأزياء أو ما كان عند بعضهنَّ من الغيرة العمياء....

لا جرم أن بعضًا من اللواتى سدل الجهل على عقولهن حجابًا ورفع الغرور بأنفسهن إلى مقام الفضل فى عالم العالمين قد يتجرأن على التزرع بنشأة الإنسان بقولهن إن الرجل مخلوق ليعمل والمرأة لتكسل.

على أنهن لا ينطقن بلفظة الكسل ترفعًا من أن يلتطخن بها بأقوالهن وإنما يجعلن بدلاً عنها ألفاظًا تؤدى الى معناها كان يقال إن المرأة قاعدة البيت نوم الضحى تتثاقل فى مشيها وتتهادى وتعجب وتدل بحسنها، وإنهُ يكفيها ترتيب ملابسها وتنسيق ضفائرها وتحسين مظاهرها لأن شغلها قائمًا بصيد القلوب وهى لا تقوى على العمل لنحو جسمها ورقة خصرها ونعومة يديها إلى غير ذلك مما توحيهِ مخيلة الشعراء إلى أقلامهم فيرويها الأغرار عنهم كحقائق راهنة يتصل دويها بمسامع الغادات فيزيدهن قصفًا وغنجًا وتيهًا ودلالاً إلا إذا كن ارفع منْ يعرنَ هاتيك الترهات آذانًا صاغية وقلوبًا واعية عالمات أن نسبة القصور إلى الجنس محط من شأنهِ مخالف لأمر خالقهِ تعالى.

إلاَّ أن مثل هذا القول لا يراد بهِ أن النساء مساويات للرجال فى قدرتهن على

كل الأعمال وفى وجوب مساواتهن بهم لأن تلك مسألة أخرى تعلقت عليها الشروح الطويلة فى الشرق والغرب وفاض بها كتابنا الأفاضل مراراً على أوجه عديدة.

وتحرير القول فيها إن النساء لا يصلحن للنهوض بأعمال الرجال إلا متى مرت عليهن الأجيال وهن يتوارثن العمل مبتدئات من صغار المصالح حتى ينتهين إلى كبارها جريًا على سنة الإرتقاء لأن اعتياد الرجال على أعمالهم وكرور الأزمنة المتطاولة والموروثة عن آبائهم جعلت معارفهم راسخة بخلاف النساء، وخصوصًا نساء الشرق فانهن لم يبرزن حتى الآن إلى عالم الأعمال إلاَّ على قلة تكاد لا تذكر

وحسب النساء فخرًا أن يجدن عملاً ويداومن عليهِ فإن برعن فيهِ فهن الكاسبات لأنفسهن فيهِ مقامًا سبقهن إليهِ الرجال، وأما الرجل إذا زاحم امرأة على إحراز فضل ما كسبتهُ يداها أو ما اعتادت على عملهِ كان ولا شك ملامًا، ولكن لا أجدهُ فاعلاً إلاَّ بما ندر أى ممن لا شغل يشغلهم عن مساعدة نسائهم فى إدارة البيت وتربية الأولاد، ولكن عار على الرجل أن يفتخر بعمل المرأة فى داخل البيت والمطبخ لأن ذلك دليلاً على حبهِ إلى الكسل ورضائهِ بأن يكون معدوداً من ضمن دائرة الخدور مما أصبحت المرأة أن لا ترضى بهِ نفسها فكيف لرب بيتها الَّتى تفتخر بفخاره وتتمجد بأعمالهِ وتسر وتفرح وتتباهى بجنائهِ لأن الرجل إن كان من الميسرين ولا حاجة لهُ بالأشغال فيمكنهُ أن يجد لنفسهِ ولامراتهِ أيضًا عملاً خارجًا عن دائرة المطبخ الموكول أمره إلى الطاهية أو الطاهى تحت مراقبة وملاحظة سيدة البيت الَّتى هى زوجتهُ.

أما فرض العمل الواجب على جنسين «الرجال والنساء» فهو ظاهر من النص الإلهى أن الرجل يعمل فى الأرض والمرأة تلد البنين وينطوى تحت هذا العمل النسائى البيت ومتعلقاتهِ وما يتبعهُ من مشاق الأعمال.

إلاَّ أن كثيرين من الآباء لا يفكرون طويلاً فى إعداد عمل للبنات ولا شك هم

الملامون بذلك، فإن البنت العذراء عند خروجها من المدرسة لا نراها فى بيت أبيها إلاَّ كأنها زهرة عاطرة يعبق أريج حسنها وتظل وأبيها باسمًا لها، وهى كإحدى العجماوات آكلة شاربة لابسة راقدة أو جالسة علَى فراش محشو من ناعم الريش أو هفاف القطن لا تدرى من عمل الدنيا شيئًا بل إنها تجد وقتًا طويلاً بلا شاغل وجيبها مثقل بما درَّ عليها والدها وهى حائرة فى أمرها حيث لا تجد لها إلي الإنفاق سبيلا إلاَّ إذا أرادت أن تزيد في ملابسها وحلاها وزينتها إعداداً لليالى الحظ وأيام السرور والأفراح أو أنها تقطع من يومها ساعات طوالاً وراء طاولة البيزيك أو اللاسكيناه، وهى منشرحة بصرفها الأصفر والأبيض ولا قيمة عندها للدينار إلاَّ حينما تأتيها يتيمة لتعيلها أو أرملة لتعينها أو من يقصدها فى سبيل عمل الإحسان مع الإنسان.

على أن فى الشرق العظيم لا يزال بقيَّة كمال لم تطرق إليهِ بعض عوائد الأوربيات ولا ذهبت برونقهِ ولا رمت بحظوظهِ منْ حالق كما هو الحال عند بعض بنات الإفرنج أو المتفرنجات اللواتى يغرهن أحيانًا تمليق الشبان وخداع المعاشرة الرديَّة فيقعن فى حبائل أشراكهم الشريرة على ظنهن بأن لطيف الأزياء نظيف الثياب متملق الحديث رقيق الحاشية خفيف الجسم سريع الإشارة كثير الحركة هو صادق الطويَّة عزيز النفس شريف المبدأ كريم الخلق صحيح الجسم خاليًا من العاهات والأمراض، ولا تدرك ما قفل من صناديق صدره وفؤَادهِ إلا متى وقعت فى أشراكهِ فيتضح لها مع الأيام غير ما قال وخلاف ما كان متظاهراً بهِ فتعود منهُ باكية العين كسيرة القلب ولا تزال حليفة الأكدار والأرق حتى يرزقها اللّه بعلاً كفوًا لها وإلا أدركت اليأس وفاتها أيام الصباء فتذكر قول القائل:

وإذا لم تجد من الناس كفوًا ذات خدر أرادت الموت بعلا

ويتضح مما تقدم بأن الفتيات لو كن ذوات عمل لاقتصرن عن الملاهى والمسرات على الطيب الحلال مما لا يضر باسمهن وشرفهن ويزيدهن وقارًا واحتشامًا بأعين

الرجال الذين قد تعلموا من مدرسة الزمان أن الخفة ابنة الطياشه وفى الرزانة العفاف والصيانة، ومن البديهى أن البنت إذا نزلت إلى السوق لكى تفتش لها على عريس يوافقها أضاعت العمر قبل أن تجدهُ بل إذا كانت فى خدرها محافظة على مقامها واحترامها عارفة بحقوقها وواجباتها تجد العريس يسأل عنها، ولو كانت فى حصن أعز من جبهة الأسد ومقام أرفع من قبة الفلك.

وعبثًا من تظن بأنها فى تبسمها وغنج أحداقها ولطف حديثها وارتفاع صوتها مع استعمالها الحريةً المطلقة الخارجة عن دائرة الاعتدال بضحكها وقهقهتها وطياشتها وسرسرتها ونقلها الحديث المضر بين خواصها وذويها وإصلائها نار الحقد والبغض فى قلوب من هم حولها ويحيطون بها وإعجابها بنفسها وبأبيها وامتنانها لمن يتغالى فى حسنها وجمالها الواسطة لاستجلاب نصيبها لأن الشاب الذى يرغب الزواج لا طمعًا فى المجد ولا حبًا فى المال لا يلتفت إلاَّ للمبادئ الأدبيةً لعلمه بأن زوجتهُ ستكون قاعدة بيته وأم أولاده وشريكة حياته، ومن كانت هذه أمانيه تجد معهُ المرأة لذة الحياة ونعيم الدنيا وسعادة الوجود مفضلة بما تجدهُ من الراحة معهُ عن قصور الملوك وتيجان الاكاسرة.

وعليه إذا كانت البنت من بنات المجد والغنى فالعمل لها لا يعد إلاَّ من نوع الرياضة للجسم وبه يشغل عقلها عن التماس ما لا يحمد عقباهُ إذ من المعلوم أن الرأس الفاضى مسكن الشيطان، ولابد لهُ أن يمر على خاطر الكسولة الجالسة فى بيت أبيها بلا عمل. أفكار كثيرة تؤدى بها إلى سوء المصير أو تسود الدنيا في عينيها فيسوءُ خلقها وأخلاقها لأن البشر جلاء المحيَّا والكمد من طبعه يذهب برونق الحسن.

ولا يتخيل للقارئ أن هذا الكسل خاص فى بلاد دون أُخرى فإن معظم بنات الإفرنج مع ما لهنَّ من الوسائط يقتلن الوقت بأشغال اليد والأبرة وأمثالها بين تكون أفكار البعض منهن سابحة فى بحار العالم تائهة بين تياره تمر الخيالات، فلا تمسك

منها إلا ما كان لذيذ الذكرى خبيث المؤدى حتى إذا ملَّت من عملها القليل رمت به إلى الأرض وهي متأفقة منهُ وتسرع إلى البيانو (المعزف) لتضرب عليهِ ألحانًا غرامية تزكى فيها ما خمد من نار الهوى ثم تسر بمن يوافيها من الأصحاب والصواحب، فتقيم معهم على المحادثة زمنًا من الوقت وأن عرض عليها الخروج من البيت فعلت برضاء والديها لإماتة الوقت الثمين عند غيرها، ولا نقول هذا في الكل بل بما نراهُ منْ بعض اللواتي نراهنَّ وهن يتقهقهن ضحكًا من عوائدنا وتقاليدنا ويرغبنَ أن نحذو حذوهنَّ بظواهر التمدن مع أن التمدن هو غير ما ذكر وهنَّ أيضًا لا ينكرنهُ عندما يحق الحقيق ونقابلهن ببنات جلدتهنَّ الفاضلات اللواتي بارين أعاظم الرجال بالفضل ومحاسن الأعمال لا بالقصف والفنج والتيه والدلال ولا بالزينة وفخفخة الأزياء ولا بالقيل والقال والتفنن بالغيبة العمياء، ولا بطلب السيادة على الرجال ولا بالتطرف في الحريَّة الخارجة عن خطة الاعتدال ولا بالتمدن وهن لا يعرفن من آدابهِ الاَّ الخفة والطياشة والادعاءُ بأنهن إفرنجيات أو متفرنجات ونحن شرقيات فتضع الواحدة منهن وهي في زهرة الصبا النضارة على أعينها الجميلتان وتأخذ بيدها الأخرى المروحة لتروح بها في قلب الشتاء وزمهرير البرد أو تسأل عن بعض ألفاظ عربيَّة مدعية عدم فهمها أو تضحك بما تراهُ منْ عوائد أمها وعمتها أو تجاهر في التبكيت والتنديد على عوائد وتقاليد جنسها ووطنها أو تجتهد في تغييرها أسماء عائلتها باستبدالها اسم حنا بجان ويوسف بجوزف وميخائيل بميشل ومريم بماري ووردة بروز وحنه باناته إلى غير ذلك من أسماء الرجال والنساء، فضلاً عما يتعلق في البيت والزينة والأزياء ثم يبرزن في المراقص والتياترات وهن مكشوفات الزنود والصدور والظهور ويسخرن بكل رجل يتقدم بالسلام على إحداهن ولا ينحني إلى الأرض بقامتهِ ولا يجعل ثلثي كلامهُ بلفظة يا مدام أو يا مداموازيل.

ولو علمن أن التمدن من الآداب وحقيقة الآداب هو تهذيب الأخلاق وتنقية العيوب

وأن المرأة ما خلقت إلاَّ لتكون متقنعة بالحياءِ وكلما زادت بالحشمة والرزانة استحقت من مجالسيها الوقار والاحترام والإكرام ما رضت لنفسها التهور فى الحريَّة المخلة بصيانة الشرف الهادمة لحصون الآداب والكمال الملوثة أذيال الطهر والعفاف.

مع أن معظم البنات الشرقيات شأنهن غير شأن الغربيات وإذا بحثنا عن الحقيقة نجد فتيات طبقات الدنيا الواطية معينات لوالديهن يساعدنهن فى الأعمال البيتيَّة وتعدُّمنهن الأمهات اللواتى يرغب فى الرجال زواجهن انتفاعًا بمساعدتهن، وهذا شأن يكاد يحسب فى الشرق عاماً بين سكان القرى والأرياف ممن يشاطرون نساءَهم على أعمالهم فلا يجدون منهن إلاَّ الكفأة.

وإذا علوت بالبحث إلى الطبقة الوسطى من الناس تجد فتياتهم أقل انهماكًا فى العمل خارج بيوتهن سيما أهل المدن والأمصار لزيادة الحجاب عليهن لكن احتجابهن فى البيوت لا يحول دون عملهن لأن الأم إذا اعتنت بأولادها وإدارة بيتها ولم تكن ذات سعة لاستخدام من يعينها استعانت على سائر مصالحها ببناتها، فيربين على العمل البيتى فتكسب الوالدون من صناعة بناتهم أو من اهتمامهن بأخواتهن ريثما تقضى الوالدة الواجبات الأخرى.

وأما أهل الطبقة العليا فهم على قسمين: قسم أخذوا عوائد الإفرنج وقلدوهم فى تمدنهم وقسم باقون على المليح مِن عوائد السلف وبين هذين القسمين قوم ينتحلون لأنفسهم مشارب وعوائد يظنونها أقرب إلى السداد.

فمنهن مَنْ تنهض بمشاركة والدتها بشؤُون البيت وتدبيره ليحسن تدبيرها بيتها عند تزوجها وانفرادها، وهذا يكاد يكون عموميًّا لأن بنات الشرق لا يجدن لإدارة البيت مدرسة تعلمهن الواجب إلاّ مدرسة الأم، ولهذا تدعم البنت الزكيةٌ يدها بيد أمها وتعمل وإياها كل عمل لائق بصاحبة البيت كملاحظة النضافة والترتيب والتدبير والطبخ

والاعتناءِ بالأولاد وسياسة الخدم وواجبات الضيوف وحقوق الزيارات إلى غير ذلك منْ تدبير المنزل الذى لايحتاج إلى عناية كبرى سوى التمرين على العمل وبعضهن عندما ينتهين من مهام عمل البيت يعكفن إلى الخياطة والتفصيل والتطريز والتخريم والرسم والجركاش إلى غير ذلك من الأشغال البيتيَّة واليدويَّة اللازمة لها وللبيت والوالدين والأخوة.

ومنهن من تسترسل إلى كثرة خدمها وغنى والديها فلا تجد لها عملاً إلاَّ البحث فى الملابس والأزياءِ وانتقاءِ الألوان الموافقة لجسمها وأمثال ذلك.

والوقت ثمين لمن يعرف قدرهُ ولهذا استوفى فى بخس قيمتهُ بنات الشرق والغرب اللواتى لم يستنرن بمصباح المعرفه ولو عرفنَ قيمته ما قبلن أن يصرفنهُ ضياعًا والخطأُ فى ذلك لا يلحقهن كثيراً لأنهن لم يتعلمن الاعتياد على العمل، فإذا تبين لكنَّ أيتها القارئات الكريمات ذلك ورغبتنَ السؤَال عن العمل الازم على النساءِ والابتداء بهِ من بيوت آبائهن فأقول أن فى الجواب على هذا مضماراً رحبًا لتبارى الأقلام غير أن أهم الأعمال أن ترى الفتاة لنفسها (أى الفتاة الَّتى لا يحجبها حجاب العقائد والعوائد) وجوداً فى المجتمع الإنسانى يجعلها بآدابها وعلومها وحشمتها وكمالها عضواً نافعًا فى الهيئة الاجتماعية وأعلى مقاما من زهرة طيبة الرائحة جميلة المنظر يتنعم الرأى بها حينًا ثم لا ينبذها وهى ذابلة وقد فقدت نضارتها.

وهذا النفع المطلوب منها لا يحصر فى عمل دون آخر لأن كل عمل تقدر عليه فهى مطالبة كسائر البشر أن تعلمهُ بملء قوتها لتجنى منهْ خيرا ولا يظن أحداً أن اشتغال البنت (محجبة أو غير محجبة) فى تدبير البيت أو تثقيف العقل أو غير ذلك فى أعمال الحياة فيما تطالب به من الحقوق والواجبات العائليَّة والأدبيَّة أن يحط من قدرها أو ينقص من سعادتها ورغدها بل بالعكس إن العامل المجدّ يرى فى عملهِ لذة وفى البطالة قصوراً وتعبًا ولا عبرة بمن كان كسولاً.